هموم أمة بين التعليم والاعلام (*)

د٠ سعيد اسماعيل على

لابد لى فى البداية أن أسجل عددا من الاعتبارات التى تشـــكل فى مجملها منطقا يحكم حديثنا عن مؤتمر رابطة التربية الحديثة الرابع عشر عن التعليم والاعلام ٠

أولا ــ ان هذا المؤتمر هو حلقة من سلسلة حلقات نشاط تقوم به رابطة التربية الحديثة منذ عام ١٩٣٨ ، عندما تأسست على يد رائد التربية الحديثة فى الوطن العربى ، اسماعيل القبانى ، وهى بحكم تكوينها وفلسفتها ، تجمع علمى ، يقع خارج المؤسسة الرسمية للتعليم ، يقوم على التطوع والاختيار ٠ وهى بهذه الصفة تلزم العاملين فيها وبها ألا يكون عملهم سعيا وراء كسب مادى أو تطلعا الى موقع تنفيذى ، وانما يتجه عمل الجميع الى أن يكون قوة دفع علمى فى حركة التغير الحضارى ، على أساس أن هذه المساهمة هى المكافأة الحقيقية والوحيدة التى تسجل لهم فى السجل التاريخى القومى٠

ثانيا ــ أن الصفة الأهلية للرابطة لاتعنى أن يحكم علاقتها بالمؤسسة الرسمية تناقض وتضاد ، وانما تحكمها علاقة التعاون والتشارك فى بناء مستقبل أبناء الأمة ، تشارك يقوم على الحوار فى ممارسة تجعل حركة الفكر غير محكومة بالمسار ذى الاتجاه الواحد وانما بمسار ذى اتجاهين ، مثلما يعطى فهو يأخذ ، مؤكدا لقاعدة تقول أن معيار قبول الفكرة أو رفضها ليس هو قائلها وانما وجاهتها وقدرتها على التفعيل والبناء ٠

ثالثا ــ أن حديثنا اليوم يستأذن فى أن يســـتوجه (العمـــوم) لا (الخصوص) بقدر الامكان ، والعموم والخصوص المعنيان هما عموم الفكر وخصوصه ، فالحديث لا يتعلـــق ببقعـــة جغرافية بعينها فى كثير من الأحيان، ولا هذا وذاك من الشخوص فى غالب الأحوال ٠

(*) ألقيت فى افتتاح مؤتمر رابطة التربية الحديثة الرابع عشر ٠
عن التعليم والاعلام بكلية التربية ، جامعة عين شمس ، ١٩٩٤/٧/١١ ٠

اننى أعلم أن التجريد المطلق للفكر قد لايكون نهجا مناسبا ، وأن الأفضل أن يكون عيانيا ، لكن ما نريد أن نؤكده أن التجريد الفكرى قد لايكون تجاوزا لمنطقة الجاذبية العلمية للواقع المعاش ، وانما قصدا الى عموم الرؤية واتساع الأفق ورصدا للمسارات الكلية وتجاوزا للشخوص العيانية واستهدافا للمبادىء والقواعد ٠

رابعا ـ أن أخطر ما قد يصيب الفكر من اضرار ، عند التقييم ، تلك العملية التى يمارسها كثيرون فى سرعة التصنيف المذهبى ، وخاصة اذا خضع لمنطق ساذج لايرى فى الدنيا الا الأسود أو الأبيض ، اتساقا مع المنطق الثنائى الشهير : فهذا خير وذاك شر ، وهنا ليل وهناك نهار ، وهذا قبيح وذاك جميل ٠٠ وهكذا ٠

ان هذا قد يعبر عن كسل عقلى ، وتراخ فكرى ، لأن الفكر فى كثير من الأحوال ، بحكم تجريده وعمومه ، قد يكون معبرا عن وقائع غاية فى التعقيد والتركيب وتنوع الدرجات والمستويات ، مما يستلزم من المقيم له جهدا عقليا شاقا يقوم على التحليل الفكرى الميكروسكوبى ٠

من هذه الاعتبارات الأربع يمكن لنا أن ننطلق الى رؤيتنا التى نقول فيها :

فى أزمنة خلت ، قد تمتد الى قرنين من الزمان ، انطلقت قوى بغى فى الشمال الى الجنوب ، تحتل وتحكم ، تستبد وتستغل ، فيثرى الشمال، ويفقر الجنوب ، ويتقدم الأول ويتخلف الثانى ، وتروج فرية مؤداها أن ثراء الشمال وتقدمه ليس قائما على القهر والاستغلال ، وانما هو بفعل طبيعة خاصة ومواهب ذاتية ، وأن فقر الجنوب وتخلفه انما هو لنقص فطرى فى المناعة الحضارية لتستقر فكرة أن التقدم قدر للشمال وأن التخلف قدر على الجنوب ، ومن ثم فلابد من الاتباع ولابد من الاحتذاء ٠

وكان السبيل الى التمكين للشمال ، فى تلك الأزمنة التى خلت ، قوة مسلحة عاتية : جندا وعتادا ٠٠

لكن مفاهيم الحرية التى زها بها الشمال ، كان لابد أن ينتقل اشعاعها الى الجنوب فيطمح الى التحرر والاستقلال ٠

وتم له بالفعل ما أراد ، عن طريق سلسلة طويلة من النضال ، سالت فيه أودية بشعابها ، دماء وعرقا ٠

فهل آذن ذلك حقا بانتهاء عصر التباغى بين الأمم ؟

كلا ٠٠ انها سنة من سنن العمران البشرى ٠٠٠

لقد استمرت مسيرة البغى لتطور من وسائلها وأساليبها ، وفقا لما كشف عنه العلم من آيات تقدم ومظاهر تطور ٠

من بين وسائل متعددة ، برز ساحر العصر والأوان ٠٠ برز الاعلام ٠ فهو ، اذا كان معينا على صناعة العقول وتفعيلها ، فهو يعين كذلك على التلاعب بها وتزييفها ٠ فى التعليم ، عجزت الصيغ المؤسسية التقليدية التى تقتضى تحديدا فى الزمان والمكان والمقررات والمعلمين عن مواجهة السيل المتدفق للأمال والتطلعات البشرية شوقا الى العلم ونهما للمعرفة ، فبرز ما أصبح يسمى بالتعليم من بعد ، وكان المعين الأساسى فى انجاح الصيغة الجديدة ، الاعلام ٠ وكما عرفنا التعليم من بعد ، فقد برز أيضا مايمكن تسميته بالامبريالية من بعد ، حيث اختفى جند الباغى وعتاده ومعسكراته ، وبرز الاعلام ليتلاعب بالعقول فى الأمم المستضعفة، فتجىء الحركة وكأنها ذاتية، بعد أن تتبنى دافعية الباغى وتنسج على منواله ، وتجعله هو القبلة التى تحكم التوجه ٠ واذا بنموذج الباغى يصبح هو سدرة المنتهى ٠٠

فتشيع اتجاهات تقلب رأسا على عقب كثيرا من المفاهيم التى شكلت وعى المواطنين فى بعض المجتمعات ٠ فاذا بمفهوم العدو يطبق على الصديق، واذا بمفهوم الصديق يطبق على العدو ، واذا بآليات اقامة العدل الاجتماعى توسم بأنها أدوات تراخ اجتماعى ، واذا ببعض مظاهر سعار قوى الاستغلال تدرج تحت مظلة آليات السوق ٠

وتشيع عادات وتقاليد غريبة تفكك عرى التراحم بين أبناء الأمة ٠٠ وتكثر على ألسنة الشباب أغان بلا معنى مصحوبة بحركات مجنونة ٠٠ وتنتشر اللافتات التى تتبنى أسماء شائعة فى مجتمع البغى ٠٠

ويصبح معيار التعالم بين الناس أن يكثروا من كلمات وعبارات بلغة أجنبية ٠٠

وتتوارى اللغة القومية وتضعف فى مجالات الحديث والخطاب العام ، سواء من حيث مفرداتها أو بنائها أو تراكيبها ٠

وتتكاثر مؤسسات تبشر الناس بتعليم بغير اللغة القومية يحظى بالامتياز والتفضيل ٠٠ وتفتح مواقع العمل لمثل هؤلاء وهؤلاء ، وتنغلق أو تتوارب أما غيرهم ٠

وشيئا فشيئا تدخل مفردات الذات القومية فى دائرة الاغتراب الحضارى ٠

اننا نعلم أن المغلوب مولع دائما بتقليد الغالب ، فيما قال مفكرنا العظيم ابن خلدون ، لكن هذه المقولة نفسها تتضمن أن الوقوف عند حدود التقليد والمحاكاة انما هو تأكيد على أن المقلد لم يزل بعد فى موقع المغلوب، وبالتالى ، فان الخروج من موقع الذيلية الحضارية لا يتأتى الا بفعل يقوم على الابداع ٠ واذا كان الابداع يعنى وضعا مبتكرا ، لكنه من ناحية أخرى، دائما ينطلق من قاعدة الذات ٠٠ ذات تملك ارادة الحياة ، وتتحرك بارادة التفكير ، وتستطلع بارادة المستقبل ٠

ومع ذلك فهناك جوانب يتمنى مواطنون فى بعض الدول النامية الأمم المستصعفة أن تقلدها بلدانهم ، وعلى سبيل المثال ، فاذا كانت (الخصخصة) قد أصبحت قدرا اقتصاديا لا يسأل هؤلاء المواطنون ربهم رده ، وانما يسألون لطفا فيه قد يتأتى بمد نهج (الخصخصة) الى (الفكر) ٠ واخضاع الفكر لنهج الخصخصة يعنى خصخصة أجهزة صناعته ومؤسساته ، ذلك أن قصر الخصخصة على المجال الاقتصادى وحده ، قد يوقع فى شبهة مكروهة ، اذ قد يعنى هذا ، احالة التبعات والهموم والمشكلات على الناس كى يدفعوا ثمنها ، أما أجهزة صناعة الفكر ومؤسساته فان استمرار احتكارها قد يعنى تسييدا لمقولة : ما أريكم الا ما أرى !!

ومن المفروض أن يخفف من هذا كله يقظة وعى ضمير الأمة الذى ، من المفروض أن يمثله المثقفون بما اكتسبوه من معرفة ذات طابع كلى ، وما يمتلكونه من قدرة على التحليل ، وما يتميزون به من بصر نافذ ، لكن المشكلة أن عددا غير قليل من المثقفين فى العالم النامى يكونون عادة قد جاءوا من شرائح اجتماعية فقيرة ٠ وفى ظل اختلال قيمى واضطراب مفاهيم،

تنقطع الروابط بين بعضهم وبين أصولهم الطبقية ، فيتطلعون الى أن يكونوا فى مواقع أعلى ، فتشيع أساليب الزلفى والسعى الحثيث فى محاولة للاستمتاع بدفء السلطة ، فيسود منطق التحليل للأنصار والتكفير للخصوم ، والتبرير للأعلى ، خاصة اذا كثرت المواقف التى لاتظهر الحاجة فيها للرأى الا بعد صدور القرار وليس قبله ، وفقا للقاعدة العلمية ٠

ولأن التعليم يتناول البذرة البشرية فى أول دورة حياتها ، يصبح متحملا لتلك التبعة الثقيلة ، وهى عملية زرع جهاز تحكم ذاتى فى النسيج العقلى للشخصية الوطنية ، بحيث تملك القدرة على التمييز بين الحق والباطل ، وتملك القدرة على النقد ، وتحوز شجاعة النقض ٠

ولانظن أننا نضيف جديدا اذا قلنا أن السبيل الى ذلك ، هو أن يكون الأمر للجميع ، لا استهلاكا وسماعا فحسب ، وانما انتاجا وتوصيلا كذلك٠

لقد أكد لنا أساتذتنا العلماء المتخصصون أن استمرار التلاقح بين شديدى القرابة يمكن أن يؤدى الى ضعف تكوين الأبناء والأحفاد ٠ وليسمح أساتذتنا أولئك ، أن نقيس على قولهم فنؤكد على أن الأمر كذلك أيضا فى عملية التلاقح الفكرى ، اذا تم دائما بين أبناء القبيلة الفكرية الواحدة فقط ٠ ان نتيجته هزال عقلى ، وتضاؤل فكرى ٠

ان مستقبل الأمة ، أى أمة ، ليس ملكا لشخص بذاته ، ولا لفئة بعينها، وانما هو ملك لمجموع أبناء هذه الأمة ٠ ولقد حفظ لنا التاريخ خبرات سعى فيها فرد أو فئة الى بناء المستقبل للأمة فجاء بناء لفرد وبناء لفئة فلما ذهب الفرد تداعى المستقبل ، ولما ذهبت الفئة تهاوى المستقبل ٠ ولم يحدث فى خبرة التاريخ أبدا أن تداعى مستقبل بنته جموع الأمة ، ولعل هذا هو مغزى مقولة أبى بكر الصديق للناس عقب وفاة الرسول ، وهو النبى المرسل : أيها الناس : من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت !!

ومن هنا فاننا نريد لأمتنا العربية أن تعيش وتبنى مستقبلها بسواعد أبنائها وعقولهم ونريد لمصرنا أن تعيش وتبنى مستقبلها من خلال حركة الجمع العام ، سواعد وعقولا ٠